

خاطر

## رفائيل الديانات الطهر والسحر

هداية إلى لجنة إلهام اللغة العربية

للآنسة الفاضلة ف. ن.

—————

كنت أود لو أن الصديقة التي قضيت معها ساعات القيلولة من كل يوم طيلة أيام اربيع الماضي ، تحكى هذا الذى أريد أن أحكيه عنها وعني ، فلقد كانت حافلة بموضوع الحديث ، مشوقة للبحث فيه ، هياينة لذكراه ، إذا ما أتت على طريقه فكأنها تقدم على طرق حديث من عند الله ... وما كانت لتنساه ، ولم يكن لها مجال لتنساه وأنا معها ليل نهار !

— رفائيل أيضاً ؟

— أيضاً رفائيل !

هكذا كانت تبندرنى كلما لقينى في فناء المدرسة أو في ناحية من نواحيها ، متأبطة كتاب رفائيل ، وهكذا كنت أرد عليها وأردف بإتسامة تفهم معناها الذى في قلبي .. ثم أسير عنها ، فاذا بها تتبعني . كأنى أحمل قوة مع السحر تجذبها من غير أن تدري ! وأدرك ناحية هادئة اعتدتها فأحتل مكاناً لي فيها كغلته خالياً كثيرة جلوسى هناك ، فاذا بها قربى .. وأتجاهل ما تريد فأصمت عنها وهي ترتقب حركة منى ، حتى إذا وثقت من إصرارى على الصمت صاحت بي وقد فقد صبرها « افتحي ! » فأبتمس .. وأفتح ... ونقرأ الكتاب الذى أجز عن عدد المرات التى قرأناه فيها وكأنا نقرأ لأول مرة . وتستوقفنا إلى أنى الزائفة فتقلت من صدرينا آهات خافتة هي التائر ، وهي الإعجاب ، وهي صدى الروعة في النفس وفعلها في الشهور ، ونفرق في السحر الذى يفيض من قلبينا حتى يغمرنا ، ونذهب في سكرة للديزة لا نصحو منها إلا على صوت الجرس ، معلناً انتهاء ساعات الفراغ ، فينال من لمتاننا ما ينال ونحن في حديق عليه !

هكذا بدأت أيام إعجابها الأولى بالكتاب ، ثم سارت — هذه الأيام — في طليمة أيام بعدها ، حفرت لها في قلبينا أتراباً بمبدأ

لن تحجوه الحوادث مهما جارت . . . تلك كانت ساعات القيلولة في الربيع الماضى ، عند ما تجدد أثر النعاس اللذيذ في كل جفن ، على الرغم من توسط الشمس قبسة السماء بهيئة ساطمة ؛ وعند ما تلمس روح الهدوء في كل حي ، كأن السكل شمراء يملحون ؛ هكذا كان حقلها بالكتاب هلياً وأنا أطمعها عليه للمرات الأولى . على أنها لا تفهم العربية الفصحى جيداً ، فكنت أتناول عميق المانى بالافصح والطارع بها إلى سطح معرفتها باللغة — وفي هذا ما فيه من تشويه — فلا تنالك نفسها من أن تقول والدهشة تملأ فاهها « أهذا السحر في العربية ؟ » فأجيب « بل وفي قلم الزيات أيضاً ! »

ما كانت تدري أن في العربية سحراً ، وقد شبت جاهلة بها . وهي وإن كانت عربية فيها دم فارسي إلا أنها تجيد الفرنسية نيل كل لغة ( هكذا شاءت إرادة المدارس الفرنسية ، وهكذا خضعت حكومات البلاد العربية لهذه الإرادة الفاسية ! )

لقد عرفتها قبل أن أعرفها (رفائيل) بثلاثة أعوام ، أطمعها فيها على كثير مما جادت به القرائح والأفلام العربية فأعجبت بالكل وذهلت برقائيل ! ولم يكن هذا الإعجاب الطاغى ، أو هذا (الدمول) ليغص حق سائر الكتب التى اطلمت عليها . فلذلك طرقته وأسلوبه ورائع معانيه ، إنما في (رفائيل) روح لا توجد في سواه ، روح عالية سمارية ليس فيها من نزعات الأرض واحدة ! — ماذا ؟ أصدق جديد ؟

قالت عند ما رأت ( رفائيل ) في يدي لأول مرة . . . كلتان اعتادت أن تقولهما كلما رأت في يدي كتاباً جديداً . . . قلت : لا ، بل معلم مجيد ، بل عالم سماوى ليس فيه خبث ولا دنس . إنه ( رفائيل ) روح من السماء كما كانت في السماء . . .

\*\*\*

كنت أود لو أن الصديقة التى قضيت معها تلك الساعات الغارقة في الإعجاب ، التسامية بروحنا عن عالم وضيع إلى دنيا ليس فيها حياة إلا الطهر والسحر . . . كنت أود لو أنها تحكى هذا الذى حكته ، إلا أنها بميدة . . . وإلا أن هذا الخاطر هاج في ولاأظنه هاج فيها ، وذلك لنظري إلى الكتاب لا كنتظرتها فقط ، إنما هناك عوامل أخرى ، تخلف في نظرة أخرى ، تقيم الخشوع في نفسى كلما ذكرت شيئاً من الكتاب أو قرأت فيه شيئاً . . .

تجاه الجمهور الفارسي . وإذ ذلك يكف للنقاد عن صيحتهم :  
« اتقوا الله فيما تكتبون فان عليكم تبعه الأثر الذي تتركونه  
في النفوس .. »

كذلك فليكتب الكتاب ، وإذ ذلك يقال عنهم إنهم مخلصون  
جد مخلصين ، وإذ ذلك يكونون أصحاب رسالات في الإصلاح  
والتهديب لكل جيل وكل جنس وكل روح :

هذا كتاب للتهديب . لعل صاحبه يوم كتبه لم يقصد به  
إلى هذا ، إنما كذلك كانت نفسه ، وقد أراد به التمييز عنها ووصف  
ما خالجهما فجاءت هذه الصعوبات الراضية من حياة الوجدان  
والقلب . وإنما قصد به إلى هذا مترجم تلك الصفحات ونقلها إلى  
أمتة أصدق نقل في أروع أسلوب وأعف حديث .. وأى بلاغة  
في القول المهدب أعظم من قول رفائيل في معنى « كان حبيتنا ينمو  
كل يوم دون أن نعلمه يد النقصان أو الفناء ، لأننا كنا لا نتكلم  
نماز بل ندعها حية يانعة تنمو وتنمو .. » وأى معنى أروع في  
تهديب العاطفة من غضبة للشاعر على حبيته يوم أظهرت له  
تحسرها على شبابه وأيامه تنطوي بهذا الحرمان في حبا ، تلك  
الغضبة التي تشتد وتحمى ، حتى يترك الفارسي وفي نفسه أنه  
لا يذوق لذة فانية من حب مهما تيسر له ذلك ، لأن الحب هو  
لك الذي في قلب رفائيل وحبيته ليس إلا .

\*\*\*

هذا خاطر في النفس أهاجته خواطر في نفوس الناس ..  
وإن في النفس من رفائيل لعوالم ، وإن أثر الصفحة منه في  
الروح كتب .. وأثر الجلة أحلام ، وأثر الكتاب تهذيب  
وصقل وبلاغة قول ، وسلامة منطق . ولا يفكر في ترجمة  
رفائيل إلا ذو نفس كنفوس رفائيل فهل يشكرها الجمهور على  
هذه الخدمة الصادقة ، أم ينكر ربه الذي براها ١٤  
ويبد فان في صدر الساعات الدافئة من الربيع الذي مات ،  
أثر من آهات خافتة كانت سدى الروعة في النفس ، وعمل (رفائيل)  
في الحس ؛ حملتها نفس (الربيع الذي مات) إلى جنة الخلد .. إلى  
رفائيل ..

الآنسة

ف . هـ

« البصرة »

أنا عند ما أقرأ مأساة رائمة أبكي ويمتصر الألم قلبي فالألم  
أياماً .. وعند ما أقرأ صفحة في البطولة ، تهيج في نفسي عوامل  
الشعور بالقوة في الروح وفي الجسم وفي الأمانى ، وفي كيانى كله .  
ولكنى عند ما أقرأ (رفائيل) أحس طالاً جديداً في داخلي ،  
وعالماً جديداً حوالى !

\*\*\*

سواء على أوثق القراء بما أقول أم لم يشعروا ، فحسبى أنى  
أصف خاطرأ في نفسي أهاجته خواطر في نفوس النير .. سواء  
على أوثق القراء من أنى لم ألق تهديداً في البيت أو في المدرسة  
من أى أو من مدرساتى ، أو من أية ناحية من نواحي الحياة  
بقدر ما ألقى في صفحة .. بل في بضع جمل من رفائيل . سواء  
أوثق القراء أم أبوا فاني أقول هذا للحقيقة لا للدعاية — وهل  
يحتاج مثل رفائيل للدعاية ؟

كل ما في نفسي من غرائزها البشرية الرديئة ، كل ما في من  
أثرة وحسد وبغضاء وتزوات دينية ، كلها تموت وتنتفى  
إذا ما قرأت في رفائيل صفحة .. وأعود لا أرى في الدنيا وفي  
قلبي إلا الممانى الجميلة ، الدنيا للطاهرة التي في رفائيل .. وأعود  
لا أرى الحب إلا عذرياً تقياً كحب رفائيل .. ولا أرى الصداقة  
إلا بريئة من كل شائبة كصداقته . ولا أرى العفة في كل  
عاطفة إلا .. ، ولا الدنيا الصادقة إلا دنياه ؛ ولا الحياة الأخرى  
بوجدان حتى إلا حياته . ولا أرى المثل الصادق للتهديب الذي  
يدخل النفس من حيث لا تشعر فينقىها ويجلو محاسن ربه فيها ،  
ويهبها لعالم كل سادته ومعناه وجدان طاهر وعاطفة بلا شائبة ،  
ذلك التهديب اللين الجارف في غير قسوة ولا تشديد ، إلا في  
كلمات يلقيها رفائيل في الحس فنعمه الدرب ؛ في غير صعوبة ،  
إلى أعماقه .. وفي جمل رائمة يصف فيها حبه وحياته وآلام قلبه  
فتحس جلده على تحمل آلام اليأس الذي ما كان ليراه بأساً ..  
وصبره على حرمانه الذي يجد فيه كل المتع ، ويلقى فيه من السعادة  
ما يجعله على الهزم بأسباب لهاذات الناس أجمعين ، لهاذات فانية  
تشمئز من أصحابها ..

كذا يجب أن يكتب الكتاب ، وكذا يجب أن يقولوا للناس  
كباراً وناشئة .. إذ ذلك يكونون قد عرفوا عظم مسؤولياتهم